الفصل الأول

الصفـدي النـاقد بين معاصريه

لقد كان للصفدي في عصره وجود واضح من الناحية الأدبية ، ونحن هنا لن نبحث فيما قاله فيه مصنفو كتب التراجم ، بل سنتجه أكثر إلى الدقـة ؛ لنلتقط شيئاً مما تناثر من الأخبار ، التي ترد عفواً في أثناء كتابات المعـاصرين ، لندرك فيها بأن الصفدي كان أحد كبار النقاد ، الذين تعرض عليهم الآثار الأدبية ، والكتب المصنفة ، ليقولوا فيها كلمتهم الفصل ، فيكون لها أوسع الصـــدى في صفوف القراء والمتأدبين .

فهذا فتح الدين محمد ابن سيد الناس ، أحد شيوخ الأدب في عصره ، وقد أخذ عنه الصفدي بنفسه ، ثم ترجم له في كتابه الوافي ، فكان مما قاله فيه « وشعره رقيق ، سهل التركيب ، منسجم الألفاظ ، عذب النظم ، وترسله جيد . وكان النظم عليه بلا كلفة ، يكاد لا يتكلم إلا بالوزن [1] » . إلى هذا الحد من الإجادة ، وصلت موهبة ابن سيد الناس كما وصفه تلميذه القديم ، دون أن نلمس فيما قاله الصفدي هنا مبالغة ما ، بل إن عباراته هذه تميزت بالدقة ووضوح القصد ، يؤكد ذلك انسجام هذه الصفات فيما بينها وتكاملها ، فإن إنساناً يملك الأذن الموسيقية الرهيفة حتى لا يكاد يتكلم إلا بالوزن ، وعنده القدرة على البيان ما يجعله ينظم بلا كلفة ؛ لا بد أن

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي ١ / ٢٨٩

يأتي قريضه عذباً في نظمه ، منسجماً في ألفاظه ، سهلاً في تراكيبه ، ثم تكون رقة شعره صادرة عن بساطة طبعه ورهافة حسه .

إن ابن سيد الناس هذا ، وهو من اتصف أدبه بما سلف ؛ كتب إلى الصفدي يجيزه في رواية ماله من آثار فيقول :

« وأذنت لك في إصلاح ما تعثر عليه من الزلل والوهم ، والخلل الصادر عن غفلة اعترت النقل أو وهلة اعترضت الفهم ، فيما صدر عن قريحتي القريحة من النثر والنظم ، وفيما تراه من استبدال لفظ بغيره ، مما لعله أنجى من المرهوب ، أو أنجع في نيل المطلوب ، أو أجرى في سنن الفصاحة على الأسلوب [1] » .

إذن فابن سيد الناس هنا ، لا يكتفي بأن يجيز تلميذه السابق برواية آثاره ، على عادة أمثاله من العلماء والأدباء ، بل يعترف له بالمقدرة وسلامة الذوق ، ما يؤهله لمثل هذه التعديلات في كتاباته ، في عبارات دقيقة المعنى ، محددة القصد والغاية .

وهكذا صعد الصفدي ، إلى المنزلة التي رفعه إليها الأدباء آنذاك ، فكان له في ميدان النقد نشاط ملحوظ ، تحدث فيه أصحاب المصنفات في عصره وما تلاه ، أمثال شمس الدين الذهبي ، وابن حجة الحموي ، والقلقشندي الذي قدم لنا من خلال ذلك ، صورة عن النقد وأسلوبه المتبع فقال :

« قد جرت العادة ، أنه إذا صنف في فن من الفنون ، أو نظم شاعر قصيدة فأجاد فيها أو نحو ذلك ، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته ، بالتقريظ والمدح ، ويأتي كل منهم بما وسعه من البلاغة في ذلك .

« فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي ، على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين علي ابن الدرهم الموصلي الشافعي ، في الاستدلال على أن البسملة من أول الفاتحة وهي : وقفت على هذا التصنيف ، الذي وضعه هذا العلامة ، ونشر

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي ١ / ٢٨٩

به في المذهب الشافعي أعلامه ، وأصبح ونسبته اليه أشهر علم وأبهر علامه . فأتم ما سام الروض حدائقه ، ولا شام أبو شامة بوارقه . كل الأئمة تعترف بما فيه من الأدلة ، وكل التصانيف تقول أمامه بسم الله ، كم فيه من دليل لا يعارض . . .

أَكرِمْ به مُصَنَّفـــاً فاقَ تَصانيفَ الوَرَى
ليلُ المُدامِ فيـه بالـ ـمَعْنى المُنيرِ أَقْمَراً
كم فيه بُرْدُ حُجَّـــةٍ قَد حاكَهُ مُحَرَّرا
وكم دَليـــلٍ سيفُهُ إذا ٱلتقى خَصْماً فَرَى
فلم يكُنْ مِن بَعـدِهِ مُخـــالفٌ قَطُّ يُرَى[1]

ولن نعلق على ما قد يثير في هـــذا النص ، لأن لذلك مكاناً يبسط القول فيه ، بل نكتفي بالإشارة إلى ما أوردنا الخبر من أجله ، في إبراز الدور الذي كان الصفدي يؤديه في ميدان النقد الفسيح .

* * *

(١) صبح الأعشى ١٤ / ٣٣٥